بين المثالية والطباع البشرية

أأبقى الأسى منى عقيدَ هموم ... سلام على الماضى سلام مَضِيم
رَعى اللهُ من نفسى براءةَ شاعرٍ ... وحاطَ سجايا لم تُتَح لِلَئِيم
طَوَيْتُ الحسانَ الغُرَّ منها وربما ... بدا عالِمٌ للناس غيرَ عليم
وما خير وجدانٍ رفيع ببيئةٍ ... ترى الخيرَ أن تُزْرِى بغير ظَلوم
تذلّ لمن أثرَى وتَعْنُو لمن طغى ... وتلفحُ مَنْ نافاها بسَمُوم
عفا الله عنى كيف أحيا مضيَّعاً ... بقوم همو دونى ضَياعَ يتيم
ولو شئت نازعت الزعامة شيخهمْ ... ولكننى آبَى سبيلَ أثيم
جنونٌ لعمرى أخذُكَ الشىء بالحجى ... إذا ناله بالطيش غيرُ حكيم
ومن ذا الذى لم يجعل الإفكَ سُلّما ... إلى مأربٍ نائى المنالِ مرُوم
ترى لهمو مثلَ الذئاب ضراوةً ... فمن لى بنابٍ كالهِزَبْر حطوم
رويدَكِ إنسانيتى لستُ عائداً ... إلى خِيم ثاوٍ فى الكهوف قديم
فلستُ وإن أمسيتُ فيهم مسوَّداً ... بآثرَ عندى من سلامة خِيمى
ولكننى أشدو بما لا أحبه ... ألا ربما نادمتُ غيرَ نديم

***

برا الله نفسى من معانٍ رفيعةٍ ... وسوَّى سواها من ترابٍ أديم
فليس بها كالناس فى الأرض حاجة ... — على رغمها — إلا رضاع فطيم
ضرورةُ حىٍّ والحياةُ مغارمٌ ... وإمساكُ جسم كالهباء هديم
فيالك نفساً مَوْسَقَ اللهُ ذوْبَها ... قصيدةَ شعرٍ فى السماء نظيم

لضوع كَضَوْعِ الطيب لا تستبنه عيونٌ ولكن ملءُ كلِّ شميم
منى ما تُتَحْ للفكر وماً يظنّها طُروقَ خيالٍ فى خلالِ غيوم
نسيم الصبا إما يهبّ جناحُها فيالنسيم سائر بنسيم
سمتْ فوق آفاقِ السماءِ ورفرفتْ على أنهُرٍ من أنجُمٍ وسديم
نشِعُّ كإشعاع النجوم على الدجى وتأفلُ فى جسمى أفولَ نجوم
فلولا لصوقُ الجسم بالأرضِ لم تجدْ سوى طيفِ رُوحٍ فى السماء مقيم
ألاَ فالتمسنى حين يعْييكَ ما أنا لدى عالمٍ ضاحى الجمال بسيم
فنى مُثُلِ (أفلاطونَ) مَهْوى منازعى ومثوى لِداتى من أخٍ وحميم
ذواتٌ ولكن من رؤًى لا تُذِلّها ضرورةُ عيش أو رِغابُ جُسُوم
تقلّص ظلُّ الشرّ عنها فما ترى بها غير خيرٍ لا يُغِبُّ عميم
هنالك حيث الحق فيهن مطلقٌ كشمس الضحى لمّا تُحَطْ بتُخوم
وحيث الجمال العَبْقرِىُّ مخلّدٌ يَمُدُّ الورى من فيضه برسوم[1]
حقائقُ لا يُقْتاسُ هذا الورى بها ومن ذا يسوِّى مُنْجِباً بعقيم
كأنى بِهَذِى المُثْلِ دَوْحاً مخلّداً يمدُّ الرَّدَى بعد الجنى بِهَشِيم[2]
فَيُطلع عاماً بعد عامٍ قطوفَهُ لدى الموتِ أشهى من قطوف كروم[3]
عفاءٌ على الدُّنيا على كلِّ ناجمٍ على كل مُفْضٍ فوقها لِنُجُوم
طيوفٌ يُغاديها الفناءُ فَتَمّحى ويخلفها منها رُفاتُ رَميم
أسِيتُ لهم قد ظاهروا كل باطل سفاهاً وأوْلوْهُ ولاءَ رَؤُوم
قضى اللهُ لى حقّاً فلما التمستُهُ تناءى به عنى مِطالُ غريم
وإنى ليفضى بى إلى الحزى والأسى تذكُّرُ أمرٍ فى الأمور هضيم
أرَى الناسَ أعدائى فمنْ لى بصارمٍ وقلب على العلاّتِ غيرِ رحيم
فلا شىءَ عندى يَفْشأ الغَلْىَ فى دَمى سوى فَتْكَةٍ تُجْرِى دماءَ خصيمى

(١، ٢، ٣) من نظرية المثل لأفلاطون أن كل ضروب الجمال ظل لمثال الجمال فى عالم المثل وأن كل ضروب الجمال تفنى وتبيد ، وهذا المثال باق خالد تصدر عنه ضروب من الجمال أخرى ، وما يقال فى مثال الجمال ، يقال فى مثال الانسان . وهنا يرى الشاعر أن هذه المثل شبيهة بالشجر الذى يؤتى ثمره فى كل عام . والانسان بالقياس إلى مثاله كالثمرة من الشجرة ، ومادامت الشجرة تجدد ثمرها فى كل عام شهياً لذيذاً للآكلين ، فكذلك مثال الانسان يجدد ثمره وهو الناس فى كل حين لفم الموت أشهى وألذ من ثمار الأشجار .

ولو أن ذا عُدْمٍ لوَانى نظرته ... وجاء يسارٍ فى غدٍ لعَديم
فكيف رَجائى فى غدٍ يسرَ واجدٍ ... كفيلٌ بما قد بَزَّنيهِ زعيم

***

إلامَ ادَارى الوجدَ وهوَ مُبرِّح ... وأكظِمُ همى وهوَ غيرُ كظيم
وحتَّامَ أستَعْدِى على همىَ الأسى ... وأدفع فى صدر الأسى بهمومى
كما لم تجدْ للدَّاءِ قد عزَّ برؤُهُ ... سِوَى مبضع ماضِى الشّباة هَذُوم
يَلُفُّ الدّجى منى مَرَاحَ بَلابلٍ ... ومثوَى شُجُونٍ لا تَريمُ جُثوم
لها صَخَبٌ خلفَ الضلوع مُبَعْثَرٌ ... فمنْ ناعبٍ يُذكِى الأسى و بَغوم
كأنّىَ نايٌ فى يدِ الليلِ جائشٌ ... بما فى الورى من فاتن ودميم
إذا أذهبَ الليلُ الحياةَ أعادَها ... قِيامى على أعبائِهَا وَلزُومى
ألا شدَّ ما أوقرْتُ نفسى بفادحٍ ... أنوءُ به تحتَ الظَّلامِ جَسيم
وأشباح ليلٍ ما تَنى فى هُتافها ... أذِنْتُ إليها بعد طولِ وُجُوم
ففى الشرق منها هاتف بزمازم ... وفى الغرب منها هاتف بهزيم
وطوراً يشقّ الليل داعٍ مُرَزَّأ ... بصوتٍ منَ البعدِ السَّحيق سقيم
له أنَّةٌ حرَّى على ضعفِ جَرْسها ... كأنَّةِ مصروعِ الفؤاد كليم
وتصخبُ طوراً حينَ أُصغى لها معاً ... فأُمسى كأنى فى مَناحةِ بُوم
وما راع نفسى وهى شتَّى طليحَةٌ ... سوى طارقٍ جمِّ الرءوس شتيم
ومن خلفه الأشباحُ تبدو ظِلالُها ... كبعض الدياجى لم تَبِنْ بوُسُوم
مَنِ الطارقُ الملحاحُ بابى بلا ونى ... بليلٍ كوادى الهامدين بهيم
وقمتُ إلى مَهْوَى الرِّتاج أفضُّهُ ... وأذنى إلى مُستَوْفَزٍ لقدومى
فألفيت أشباحاً تنزَّى عرامةً ... فمِنْ ثائرٍ بادى الأذى وكتوم
وقالت : فنون العيش لم تألُها رُقى ... بشعر كريحان الرياض نَمُوم
أيا ساحراً كيف استبحتَ خُدُرَنا ... وأخرجتنا منها بِرَجْعٍ رنيمِ
تنكَّرْتَ للأوضاعِ من إرْثِ آدمٍ ... فبتَّ بها تَهْذِى مَبيتَ صريم
فها نحن ذى جئنا فما أنتَ صانعٌ ... بأشباح أوْضاعٍ أتتْ وزُعُوم
نماما الطغاةُ الظالمون حبائلا ... لأهوائهم لم يحفلوا بِمُليم

أأنتَ تريد الخيرَ فى الناس سائداً ... وَمَنْ لك بالإنصاف عند نَهيم
ألستَ ترى أن الورى فى حياتهم ... عبيد طباعٍ لا عبيد حُلوم
فإن يصدروا يوماً عن الحلم والحجى ... نخوف شقاء أو رجاء نعيم
فقلتُ : رويداً لستُ عن ذاك سائلاً ... أسا الياسُ منهُ عِلّتى وكلُومى
ذرينى لدنيا غير هدِى من الرُّؤى ... وفكر كثجّاج السحاب سَجوم

محمد عثمان الصمدى